ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 18 ديسمبر 2019

«الدراسات الثقافيّة» ودراسة الثقافات الشعبيّة

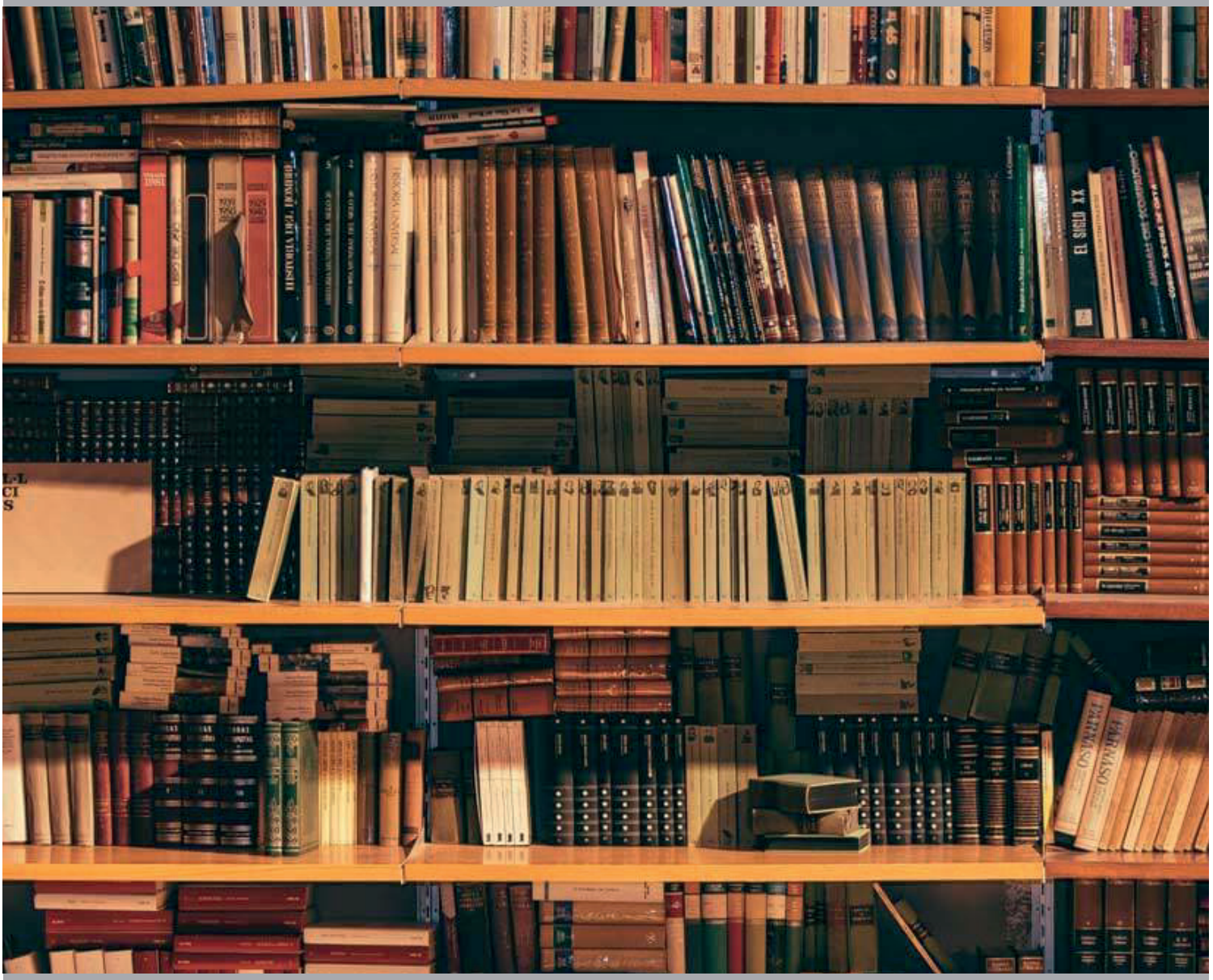

بول راسّ

ترجمة: محمّد الجرطي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019

«الدراسات الثقافيّة» ودراسة الثقافات الشعبيّة[1]

تأليف: **بول راسّ**[2] (Paul RASSE)

ترجمة: **محمّد الجرطي** (المغرب)

1 النص الأصلي:

Paul Rasse, Les Cultural Studies et l'étude des cultures populaires, MEI, nos 24-25 «Études culturelles / Cultural Studies», 2006, pp: 125 – 134

2 Paul Rasse, Université de Nice «Sophia Antipolis» & Laboratoire I3M «Information, milieu, médias, médi - tion»

تدين دراسة الثقافات الشعبية بالكثير إلى "مركز الدراسات الثقافية المعاصرة" في برمنغهام، الذي طوّر مقاربة معقولة لفهم أنماط حياة العمّال المميّزة في حقبة "الثلاثين سنة المجيدة" ((Trente glorieuses 1945 - 1973)). في فرنسا، في الفترة ذاتها، كان يسيطر أنموذج منحدر من التربية الشعبية، حاول جاهداً تعميم الثقافة المشروعة العالمة على حساب فهم الثقافات الشعبية. إنّ حركة المتاحف الشعبية المتناظمة[1] غيّرت الوضع، فوضعت في قلب اهتمامات عدد من الباحثين طريقة جديدة تقوم بمقتضاها المجتمعات الآيلة للاختفاء بإعادة امتلاك ثقافتها الخاصة، لتوليد فضاءات حقيقية عامة بالمعنى الهابرماسي[2] للكلمة. هذه الدينامية الملتزمة على هذا النحو، قد تكون مفيدة جدّاً لدراسة الطفرات والتحولات الحالية المرتبطة بتطوير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

إنّ الاعتراف والقيام بدراسة معمّقة للدراسات الشعبية الحديثة أو ما بعد الحداثة، المعاصرة والحضرية العمرانية هي عناصر قوية في إسهام الدراسات الثقافية في الأنثروبولوجيا الثقافية. ومن ثمّ، فإنّ نشر كتاب "استخدامات المعرفة" سنة 1957 من طرف ريتشارد هوجارت (Hoggart) سيبلور وجود حركة فكرية تناضل من أجل نيل الاعتراف قادها أساتذة باحثون في إنجلترا كانوا يشتغلون في مراكز جامعية خارجية في الوسط العمالي[3]. حتى ذلك الحين، وحدهم الفلكلوريون الباحثون في التقاليد والفنون الشعبية وبشكل نادر الأنثربولوجيّون - الذين اهتموا بالثقافة الشعبية - هم من اهتموا أساساً في أعمالهم بالثقافات التقليدية، والريفية والفلاحية، المتجذرة في الأراضي المحلّية لآلاف السنين والمهددة ثقافتهم الشعبية بالاختفاء، حيث يجاهد هؤلاء الباحثون، على وجه السرعة، للحفاظ على آثارها. لقد تطورت الأنثروبولوجيا وعلم المتاحف جنباً إلى جنب. الأنثروبولوجي ريفيث (Rivette) وأمين المتحف ريفيير (Rivière)، هذان الباحثان مديرا متحف الإنسان، جسّدا لفترة طويلة رمزاً لهذه الحركة الفكرية التي اهتمت بالثقافة الشعبية. في نهاية المطاف، لم تكن الثقافات الشعبية تحظى بالاهتمام إلاّ عندما تختفي، وحده الاحتضار استطاع أن يمنحها ما يكفي من الاهتمام لتبرير اهتمام الباحثين بها ولو بطريقة مختلفة باعتبارها هواية.

1 متعلق بعدة أنظمة وبعدة فروع من العلم مشتركة العمل.

2 نسبة إلى المفكر يورغن هابرماس

3 ريتشارد هوجارت، نُشر الكتاب في فرنسا سنة 1970 بعنوان "ثقافة الفقراء" منشورات مينوي، باريس.

ثقافة الفقراء

إنّ كتاب ريتشارد هوجارت حوّل استخدامات القراءة في الأوساط الشعبية، أو بالأحرى، غيّر الاستخدامات التي تصنعها الأوساط الشعبية من الألفبة (تعليم الأميّين الكتابة)، حيث يرسم بشكل مرجعي سمات طبقة عاملة تصل بطريقة أو بأخرى إلى الاستهلاك الجماهيري وحتى الأوّلي التمهيدي. يهتمّ كتاب هوجارت «استخدامات المعرفة» باستخدام الأوساط الشعبية للمنشورات الرخيصة ذات الانتشار الكبير التي تحققها الصناعات الثقافية في الحاضر، وتقوم بتسويقها وتوزيعها على نطاق شاسع. ولتحليل الطريقة التي تواجه بها إغراءات الصحافة السائدة المواقف التقليدية للطبقة العاملة، يخصّص هوجارت معظم كتابه لوصف السياق، والبيئة والجو العام وأساليب حياة الأوساط الشعبية للمراكز الصناعية الإنجليزية الكبرى. إنّ المنهج الذي استخدمه هوجارت هو على حد سواء، منهج سيرذاتي وإثنوغرافي كفيل بفهم الثقافات الشعبية، لأنّ هوجارت ـ وهو يتيم ـ قد تكفلت بتربيته عمته العجوز في الضواحي الفقيرة في منطقة ليدز الإنجليزية. يقدّم هذا الكتاب «استخدامات المعرفة» إضاءة جديدة على أنماط الحياة، وأذواق وقيم الطبقة العاملة الإنجليزية التي يسبر أغوارها من الداخل بنظر نفاذ ورؤية ثاقبة. من المسلّم به أنّ هوجارت هو رجل أدب أكثر مما هو عالم اجتماع؛ ذلك أنّ اللهجة والأجواء الناجمة عن الأوصاف المعمقة الغنيّة بالتفاصيل، دون مجاملة أو ازدراء، تمنح كثافة وعمق للممارسات الشعبية التي فشلت المقاربات المركزية العرقية، التي أجراها باحثون خارجيون، وربما أكثر إغراقاً في الثقافة العالمة، في إدراكها بما فيه الكفاية من وضوح وعمق للإحساس بهذه الممارسات الشعبية ومعرفتها. في النهاية، إنّ كتابه يتيح لنا فهم الديناميات الداخلية والبنيوية لهذه الثقافة الشعبية، وطريقتها في الوجود في العالم، ومواجهتها للتقدم ولعوالم اجتماعية أخرى.

نُشر الكتاب في فرنسا في سنوات السبعينيات، بمبادرة من باسيرون (Passeron) وبيير بورديو (Bouedieu) اللذيْن رحّبا بالكتاب في سلسلة جديدة بعنوان «المعنى المشترك» ضمن منشورات مينوي (Minuit). لقد أثارت بالفعل ترجمة هذا الكتاب إشكالية، لأنّ الأوصاف السياقية والعبارات المحلية أو العامية التي ترصّع الخطاب الشعبي ليس لها معادل في اللغة الفرنسية. هكذا، إنّ كلمة الباحث ريغبي (Rigby) توضح أنّ الثقافات الشعبية للمجتمعات الأخرى ستبقى أكثر خفاء وأكثر غموضاً وأكثر حجباً عن مجتمعات أخرى. في الواقع، إنّ الأمم تبادلت دوماً وبشكل كبير ثقافتها العالِمة بدلا من ثقافتها الشعبية التي لا تزال حتى اليوم أسيرة الحدود الثقافية واللغوية[4]. تجمع ثقافة النخب هذه الحدود وتعمل في الآن نفسه على إذابتها ومزجها لأنّ الثقافة العالمة مرتحلة منذ القدم. وهذا إكراه يجب دمجه في كل إبداع. ومن ثمّ تتوفر الثقافة العالمة على نصوص، وكتب منهجّية وقواميس ودعائم علمية في كل ما تملك من سمات كونية، في

4 ريغبي بريان "الثقافة الشعبية في فرنسا وانجلترا" 1999.

حين أنّ الثقافات الشعبية تبقى بشكل يائس حبيسة سياقها، في وسط محلّي يمنحها حياة، وفيه تعبّر عن نفسها في ارتباط مع ذوات تبقى في جوهرها ذوات ممثلة بدلا من أن تكون فاعلة.

وإلى جانب ذلك، إنّ كتاب هوجارت، الذي نُشر في مرحلة الهياج الثقافي في ما بعد ثورة مايو 1968، لم يحظ بالنجاح المنشود، على غرار كتاب هربرت ماركوز (H. Marcuse)، على سبيل المثال، حيث قامت فرنسا بترجمته ونشره على نطاق واسع في نفس الفترة[5]. مع ذلك، أصبح كتاب هوجارت وسيظل مرجعاً هاماً وإن بقي معزولا. إنّه منارة لكل باحث يهتم بالثقافة الشعبية. باسيرون على وجه الخصوص، الذي اعترف بأنه تأثر بهذا الكتاب وتشرّب منطلقاته النظرية العميقة، يقول: «إنّ كتاب «استخدامات المعرفة» يحرّرنا من التمثيل الأسطوري للشعب كما تلاعب به المثقّفون الفرنسيّون المهووسون بدور وسائل الإعلام في «تكتيل» طبقة يفترض دوماً أنها طبقة عاملة وضحية موافقة من وسائل الاتصال الجديدة، وفريسة محددة للاستغلال من قبل وسائل الإعلام»[6].

لقد مهّد هوجارت الطريق للتركيز على البعد الاجتماعي للثقافة، مبيّناً كيف تنسج الثقافة أشكال التضامن التي عاد إليها طويلا لأنّها ضرورية في الحياة اليومية بقدر ما تنظّم أشكال المقاومة ضد التدخل الوافد من الخارج، سواء تعلق الأمر بوكلاء المراقبة (من موظّفي الخدمات الاجتماعية ورجال الشرطة...) أو لإعطاء تعليمات ضد الاستهلاك السلبي للمنتوجات الثقافية الجماهيرية الجديدة (بما في ذلك الصحافة الشعبية). وهكذا تتيح الثقافة هذه الرؤيةَ الموارِبة، باعتبارها من سمات أنماط الحياة الشعبية: الاستسلام للانغماس في مُتع الحلي، وحلاوة المأكولات التي تحظى بدعاية إعلامية مع الاستعداد في الابتعاد عن عالم الآخرين، كشكل من أشكال الكرامة والشموخ، حتى لا تكون الثقافة الشعبية عرضة للاضمحلال والاندثار.

في الآونة الأخيرة، إنّ الدراسات الثقافية، التي تواجه فقدان موضوع دراستها (الطبقة العاملة) والانكفاء في مجتمعات عشائرية، قد عمّقت وجهة النظر هذه لتحليل ديناميات الحركات الثقافية الأقلية مثل: النسويات، دعاة حماية البيئة أو الحركات العرقية. وتبيّن الدراسات الثقافية كيف أنّ هذه الفئات الاجتماعية، التي كانت في البدء جماعات أقلية، استطاعت أن تتشكّل في جماعات ضغط رمزية، وفي مجتمعات أو في شبكات ثقافية، مطوّرة بذلك وسائل مبتكرة وأصيلة في الوجود، في ما بينها وفي العالم، مع اختراع ممارسات اجتماعية، وأساليب، وأشكال التعبير الفني، وملابس وأزياء، وعادات موصوفة وأسباب ودواعي وفرص للاجتماع والالتقاء، مع طرح قيم للنقاش قبل هيكلتها في بنيات وأنساق منظّمة تجمعها وتعارضها مع الآخرين. والسبب في ذلك أنّ في الحلبة الرمزية، لا يملك كل شخص نفس الموارد السياسية والاقتصادية

5 بعد ثورة ماي ترجم الناشرون عدة كتب أهمها "العقل والثورة"، "نحو التحرير"، "نقد التسامح الخالص".

6 جون كلود باسيرون، 1999، مقدمة كتاب "استخدامات المعرفة" لريتشارد هوجارت ص 53

أو الاجتماعية لإسماع وجهة نظره وفرضها، أو لإقصاء وجهة نظر خصومه، ليربح بقوة ويقاوم عملية المثاقفة والولاء للأنظمة الرمزية المهيمنة، كي يحافظ على وجوده ويبرز ويتميز عن الآخرين ويدافع عن مطالبه، ذلك أنّ الأقليات يجب أن تنظّم نفسها وتبتكر سمات ثقافية أصيلة لبناء ثقافة حقيقية توحّدها، وتتيح لها الظهور وامتلاك رؤية للعالم، كما تسمح لها بلعب دور مؤثّر في الساحة العامة لوسائل الاعلام.

لقد طوّر هابرماس (Habermas) ـ حين عاد هو نفسه إلى تصوره للثقافة وللفضاء العام والذي اعتبره تصوراً متشائماً جداً، حيث تسيطر وسائل الاعلام على هذا الفضاء بشكل مطلق ـ تصوراتٍ مشابهةً تماماً وبيّن كيف أنّ بعض الفئات الاجتماعية المختلفة تستثمر الفضاء العام باعتباره يمثّل «وسائل الإعلام» وتستخدمه بمثابة مسبار صوتي لإسماع مطالبها ولمناقشة وفحص النماذج المهيمنة. كما قام هابرماس بالاستشهاد بعمل النقابات والجمعيات المطالبة بالحقوق، والحركات الاجتماعية وجمعيات المستهلكين ومجالس آباء التلاميذ والمؤسسات الثقافية...

متاحف المجتمع ودراسة الثقافة الشعبية

في فرنسا، ولفترة طويلة، هيمنت التصوّرات القديمة، سواء أكانت أرستقراطية أم جمهورية، بخصوص الثقافة. وحتى في الأوساط الفكرية التقدمية، إنّ الثقافة الوحيدة التي تحظى بالاهتمام وكفيلة بأن تكون فعلا تحرّرياً هي الثقافة الشرعية العالمة، ثقافة الفنون الجميلة، التي تزدهر في الظل تحت حماية الطبقات المهيمنة وذوقها السليم والرفيع، وذلك لسعادتها وتميزها. حتى لو اعترفنا بطريقة ما أنّ الآخرين أو الطبقات الاجتماعية المهيمن عليها أو الطبقات الشعبية يمكن أن تكون لديها ثقافة خاصة بها، فإنّ هذه الثقافة، في نهاية المطاف، لا يتم التفكير فيها إلاّ باعتبارها تابعة لثقافات النخب. مثل هذا التصور، ينفي عن الثقافة الشعبية أي اتساق حقيقي ويحيلها أو يختزلها في لا شيء، وتارة يضفي عليها قيمة كبرى، مضخّماً هذه السمة أو تلك، بالاستناد إلى النماذج الجمالية السائدة. إنّهما اتجاهان متعارضان ينعتهما بالخصوص باسيرون وجرينيون (Grignon) بـ «البؤسوية[7]» و«الشعبوية[8]» موضّحَيْن أنهما اتجاهان متناظران بما أنّ من كلا الجانبين تبقى المرجعية هي الثقافة المشروعة[9].

في نفس السياق، تُضاعف السياسات الثقافية الجهد، على غرار مجهودات مالرو (Marlaux) أو دي فيلار (de Vilar) لجعل الثقافة العالية في متناول الجماهير الذين يبتعدون عنها[10]. تُطور السياسات

7 بؤسوية: نزعة تظهر عند أديب يغالي في إبراز جوانب البؤس في الحياة الاجتماعية.

8 نظرية الروائيين الشعبيين الذين يصوّرون بواقعية حياة عامة الشعب.

9 جرينيون وباسيرون، 1999، "العالم والشعبي: الشعبوية والبؤسوية في علم الاجتماع وفي الأدب" غاليمار، باريس ص 264.

10 بول راس "المسرح في الفضاء العام " أفينيون، فرنسا، ص 223.

الثقافية استراتيجيات هجومية، ترسانة من تقنيات الوساطة ودراسات عن الجماهير، واستراتيجيات التسويق والحملات الإعلانية. ويهتم علماء الاجتماع أيضاً بالشأن الثقافي وتكمن مهمّتهم في حساب وإعادة حساب وتيرة الحضور إلى المسارح ودور الأوبرا والمتاحف ويعملون على تشريح الأصول الاجتماعية والجغرافية للجمهور، وتقسيمه إلى فئات من حيث العمر، والأصل والممارسات، كما يعملون على تقييم سيرورة التلقّي ويهتمّون أيضاً بغياب الجمهور. كلّنا مدعون إلى الفرح حين ترتفع وتيرة حضور البعض أو نرثي لإقصاء البعض الآخر ونتأسف على الوقت الكبير الذي يقضيه الآخرون أمام شاشات التلفزيون.

لقد أسعف الحظ بيير بورديو ليبيّن كيف يتمّ إقصاء الطبقات الشعبية التي تستبعد نفسها بنفسها، على الرغم من الكثير من التعاطف، فترتدّ إلى البربرية، وتساهم بالتالي في شرعية الطبقات المهيمنة في المجتمع. يضاعف الرأسمال الثقافي التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية حين يعزّز الاختلافات التي يتمّ رصدها في حضور المواقع الثقافية المشروعة والراقية حيث يتم إضفاء الشرعية على الاختلافات في توزيع المداخل، والسلطة والموارد المالية. في النهاية، إنّ الثقافات الشعبية، أو ما تبقّى منها، لا يتم تناولها إلاّ من زاوية إخفاقاتها الطائفية والماضوية، التي تدينها الحداثة ووسائل الإعلام الواقعة في قبضة الثقافة العالمة.

في هذا السياق، إنّ حركة المتاحف الشعبية المتناظمة، في سنوات السبعينيات، ثم متاحف المجتمع ذات الطابع الصناعي في سنوات التسعينيات، تتجلّى بوصفها صورة للابتكار والتجديد في الاتجاه الذي تستخدم فيه مؤسسةً ثقافية مشروعة؛ أي المتحف، لإضفاء قيمة على الثقافة الشعبية والدفاع عن استمراريتها، رغم التحولات الاجتماعية، والاقتصادية والصناعية الحالية؛ ذلك «أنّ المتحف لا حدود له سوى حدّ المجتمع الذي يخدمه...» مثلما يقول الباحث فارين بوهان (Varine-Bohan) في البيان الذي نشر سنة 1973 بعد السنة الأولى من التجربة في المتحف الشعبي المتناظم في منطقة كريوسوتمونتسو. «إنّ المجتمع بكامله يشكّل متحفاً حياً، يتابع الباحث فارين بوهان قائلا، يوجد الجمهور دوماً بداخله، إنّ المتحف ليس له زوّار، بل له سكّان». يتوقّع مشروع المتحف الشعبي المتناظم المشاركة النشطة للسكان، الذي من المتوقع والمفروض أن يتكفّلوا بأمانة المتحف ومسألة التفسير وعرض وتقديم ما يعتبرونه، أو بالأحرى ما يظهر جديراً، باعتباره تراثاً ثقافياً.

لقد أظهر جورج هنري ريفيير، القيم على متحف الانسان، الذي بدأ ودعم الدراسات الإثنوغرافية الأولى حول العالم الريفي والفلاحي، تحمّسا لهذه التجربة، إذ افتتح بشغف متحفه الجديد المكرّس للبحث، والحفاظ على الآثار ووساطة الفنون والتقاليد الشعبية. وتعيّن على جورج هنري ريفيير أن يناضل مدى الحياة لتحقيق هذا المشروع؛ أي ما يقرب من أربعين عاماً، لكنّ هذا التكريس يأتي بعد فوات الأوان، بالكاد فتح المتحف، الذي قدم توفيقية عالمة ووطنية عن الثقافات الشعبية، حتى بدا أنّ المتحف أصبح متجاوزاً

وعفا عليه الزمن. إنّ المعارك الجديدة من أجل الاعتراف بالثقافات الشعبية تحدث في المناطق، على أرض الواقع، حيث تترسخ الثقافات الشعبية مع السكان الذين يقومون بإحيائها.

ومرّة أخرى، تدعو المتاحف الشعبية الجديدة المتناظمة علماءَ الإثنولوجيا إلى مساعدتها في أعمالها، لكنهم في الغالب ليسوا سوى طلبة مبتدئين لا يتمتعون بوضع أكاديمي رصين. ومع ذلك، حقق هؤلاء الطلبة المبتدئون العديد من الدراسات التي تصاحب المشروع العلمي للمتاحف، وتقوم بإعداد المعارض. في هذا السياق النشط من الدراسات الثقافية (لكن هل يعرف هؤلاء الباحثون أعمال ريتشارد هوجارت؟)، يهتم الباحثون بالبقايا المشرفة على الموت من الثقافات الريفية وأنماط الحياة العمّالية، والمعارف المنتجة للصناعة وكذلك ثقافة الشباب من منظور يتناول كثافتها وديناميتها الخاصة. إنّ بعثة التراث السلالي (الإثنولوجي) التي تأسست في أواخر الثمانينيات من طرف وزارة الثقافة تدعم العديد من المتاحف التي تهتم بالثقافات الشعبية (في بدايتها على الأقلّ). وفي الوقت نفسه، أثار ظهور هذه المواضيع الجديدة للثقافة أبحاثا عن ديناميتها الخاصة، وركّزت هذه الأبحاث على الوظيفة الرمزية لهذه المتاحف ذات نمط جديد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأبحاث يقوم بها علماء الاجتماع أكثر ممّا يقوم بها علماء الإثنولوجيا، حيث يركزون على مضمون الثقافات. ونلاحظ أيضاً، أنّ العديد من الباحثين، في نهاية المطاف، يجدون مكاناً في النظام الجامعي، وذلك بدمج وتوحيد علوم المعلومات والتواصل، وهو حقل غير متجذر أكاديمياً، ولهذا كان أكثر انفتاحاً على إشكاليات وقضايا جديدة للمتاحف. ويحاول هؤلاء الباحثون تحليل سيرورة الإبداع، والإخراج والاحتفال بثقافة السكان الذين يقطنون المناطق التي تهتم بها المتاحف. «إلى أقصى حد، يكتب جون دافالون (Davallon)، بخصوص المتاحف الشعبية المتناظمة، يمكن القول إنّها تهدف إلى تحويل المناطق إلى مكان الاحتفال والطقوس أكثر مما تهدف إلى تحويل المناطق إلى متاحف...». وخلافاً للمتحف الكلاسيكي، إنّ المتاحف الشعبية المتناظمة ومتاحف المجتمع (مثل الاحتفالات الثورية في أواخر القرن الثامن عشر) تسعى لتكون «تكنولوجيا الحدث». إنّ التجمّع ليس فقط لحظة حضور يمنحها المجتمع لنفسه، بل يجسد الأهمية التي يمنحها الجمهور لتراثه ولمشروع الجمعية. وليس لفضاء الاحتفال أن يكسّر لحظات علاقات الهيمنة الرمزية التي تنكر حتى الآن على الثقافات الشعبية إمكانية التعبير عن نفسها وإبراز مميزاتها، بل تندرج هذه القطيعة من الآن فصاعداً في ديمومة، بما أنّ الثقافة الشعبية تصبح هي أيضاً جديرة بالمحافظة على آثارها وتراثها وتوفُّرِها على التحافة (علم تنظيم المتاحف).

إنّ أعمال هابرماس حول الفضاء العام، التي تتلاقى مع وجهة النظر التي طورتها الدراسات الثقافية تقدم آفاقاً جديدة لتحليل الديناميات الثقافية للمتاحف الشعبية المتناظمة.

(...) إنّ وظيفة المتاحف لم تعد مجرّد الحفاظ على تراث الشعب، وجعله يرى تحف الثقافة وروائعها السائدة من أجل تربية ذوقه وتهذيبه، التُحف التي تختارها النخب التي تتملك وتسيطر على النقاش الجمالي (المُنصَبّ على تعريف وتحديد ما يستحق المحافظة عليه كتراث وتفسير وظيفته الرمزية). أصبح المتحف تماماً مكاناً للنقاش حول ترسيم تراث الثقافة الشعبية من قبل السكان المحلّيين الذين يتملكونها).

ما الذي يجب أن نحافظ عليه ولماذا؟ كيف نفسر المجموعات والتحف الفنية؟ ماذا يجب أن نقول عنها؟ أي رؤية للعالم تبني الثقافة الشعبية[11]؟

في الآونة الأخيرة، اهتم الباحث سيرج شومييه (Serge Chaumier) بتطور هذه المؤسّسات ذات الديناميكية المتناقضة التي يثيرها قانون هذه المؤسسات. ومن أجل الحصول أخيراً على الاعتراف ودعم مديرية المتاحف في فرنسا، أسس المتطوعون المتحف ووجهوا النداء لفنّيين مدرّبين على الأنموذج الجمهوري لنشر الثقافة المشروعة والعالمة[12]. في مقابل التعريف التقليدي للمتحف الشعبي المتناظم، الذي يؤكد على الروابط الاجتماعية، ويقود الفاعلين المحليين للالتقاء والسكان إلى الاجتماع بانتظام في جميع أنواع المناسبات والاحتفالات والمظاهرات حول مجموعة من التحف المختلفة والمتراكمة لقيمتها الرمزية كشاهد، هناك تصوّر جديد للمتحف باعتباره أداة اتصال مع الآخرين من الخارج. إذ تظهر استطلاعات الرأي أنّ جمهور السياح الذي يراكم الزيارات للمتاحف سرعان ما يتكون لديه انطباع أنه يرى دوماً نفس الأشياء تقريباً. ثمة حاجة ماسة إلى خلق مشروع يوضّح ما يتميّز به المتحف من مميزات استثنائية... مع وضع برامج خاصة بالمتاحف وأجهزة الوساطة الكافية. من المسلّم به أنّ المتحف يمارس إغراء يجذب الزوّار، لكنّ السكان المحليين يشعرون أنهم محرومون، من دون شك. وهذا هو الثمن الواجب دفعه حتى تتمكّن مديرية المتاحف والمؤسسات الثقافية الشرعية من تقديم المساعدة للمتحف، حيث يمكن أن يضفي قيمة على المكان ويحافظ على التراث ويُعّرف بالعناصر المميزة للثقافة الشعبية.

هنا، نجد أنفسنا بعيدين عن الأشياء والموضوعات الجديدة، إلاّ أنّ قضايا وإشكاليات تتلاقى مع قضايا الفضاء العام والانجازات المتبادلة للثقافات في الحلبة الشاسعة لوسائل الاعلام العالمية، قضايا وإشكاليات تسعى لمساءلة وتوضيح استراتيجيات الأقليات للمشاركة في لعبة المجتمعات الكبرى. إنّ الثقافات المهيمنة في المجتمع هي في موقف قويّ، لأنّ لديها الكثير من الموارد لشرح وبسط نفوذها معتمدة في ذلك على فئات اجتماعية لديها الكثير من النفوذ والقوة، والمزيد من السلطة، كما أنّ أنماط حياتها الرغيدة والمريحة مرغوب فيها بالضرورة من طرف الجميع. ومع ذلك، لا تزال الثقافة الشعبية قائمة، فقد انضمت إلى الثقافات الجديدة

11 بول راس، 1999 "المتاحف في ضوء الفضاء العام، التاريخ، التطوّر والرهانات" باريس، هارماتان ص 342.

12 سيرج شومييه، 2000 "ازدواجية سيرورة المتاحف الشعبية" مجلة "الجمهور والمتحف" رقم 17-18. ص 83.

التي تجدّد نفسها، والتي انبجست من تحوّلات عالم واقع في أتون حركة مزدوجة من العولمة والتجزئة. وتقدم الثقافة الشعبية مواضيع جديدة للبحث بالنسبة إلى الدراسات الثقافية، التي من أجل التطرّق إليها تعيد نشر المعارف المتراكمة حول قضية الثقافات والعلاقات التي تربط بينها من زمن سحيق.

آفاق ووجهات نظر أنثروبولوجية.

في إعادة قراءة قام بها ريتشارد هوجارت في سنوات السبعينيات زمن طفولته، يتأسّف لاختفاء أشكال المؤانسة الاجتماعية التي اتسمت بها البروليتاريا. في الواقع، إنّ كتاب «استخدامات المعرفة» يحلل عالما متحوّلا بفعل الثورة الأولى لوسائل الاعلام والمواصلات، ثورة القطار، والمحرّك البخاري الذي أدّى إلى بناء المراكز الصناعية الكبرى وإلى النمو الاقتصادي، ثم هيكلة الطبقة العاملة، عالما وصل تدريجياً إلى الاستهلاك الجماهيري ودولة الرفاه. وهذا العالم بدأ ينكشف ويتراجع مع الأزمة التي وضعت حدّاً للحقبة الشهيرة بـ «الثلاثين سنة المجيدة».

الثورة الثانية الكبيرة لوسائل الاتصالات بدأت مع عصر المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات، وتلاحقت مع تقدم الاتصال الذي فتح آفاقاً لا نزال نسيء قياس حجمها، إذا سلّمنا أن هذا الابتكار لديه، في نهاية المطاف، في سنوات قليلة، إمكانية ربط الناس فيما بينهم عن طريق الآلات بتكلفة متناهية الصغر، وهو ابتكار حديث جداً. لقد أتاحت هذه الثورة إعادة نشر إنتاج كميات كبيرة من السلع الاستهلاكية على الصعيد العالمي. لقد مزّقت النسيج الصناعي وفجرت معاقل العمّال التي شكّلت الركيزة الأساسية لثقافة الفقراء. «لأول مرة يبدو أنّ الوعي الطبقي بدأ ينحلّ...اختفى الشعور بالانتماء إلى عالم الطبقة العاملة جنباً إلى جنب مع العلاقات العشائرية التي نسجت داخل هذا العالم بين أعضائها لصالح خليط من الأفراد في صراع مباشر مع استراتيجيات شخصية، ليشقوا لأنفسهم الطريق الخاص بهم».

إنّ الإمكانيات الهائلة التي فتحها عالم الاتصالات تحلّ تدريجياً محلّ الاتحاد الاحتكاري ومحل الجماعة، شبكة الجهات الفاعلة في تفاعل مع بعضها البعض لأسباب أكثر دقة وفي أزمنة قصيرة جدّاً، إذ برزت أشكال جديدة للجمع بين الناس عن طريق الهاتف والشاشات الرقمية وآليات التجمّع الدقيقة والمتخصصة ذات الانتشار الواسع.

إنّ اختلاط الثقافات وتشتيت الجماعات على المستوى العالمي وإعادة بنائها في مجتمعات سريعة الزوال، عاطفية وتطهيرية من الأهواء التي قام بتحليلها بشكل عميق الباحث الأنثربولوجي ميشيل مافيزولي (Maffesoli)، فتحت للدراسات الثقافية آفاقاً جديدة. ولمّا كان العلم والمعرفة يتقدّمان بخطى صغيرة،

من خلال إعادة استدعاء الأعمال الفكرية السابقة بانتظام من أجل تفسيرها في ضوء الأسئلة الجديدة التي تطرحها هذه التحولات، فإنّ المنشورات الفكريّة للعلماء السابقين الكبار، مثل أعمال ريتشارد هوجارت وغيره من الباحثين، تستحق إعادة الاكتشاف والمراجعة والتدقيق بانتظام. لذلك، فإنّ الدراسات الثقافية، التي هي دوماً في البحث عن مظاهر جديدة للثقافة، والملبّدة بموضوعاتها الناشئة، تبدو في غالب الأحيان بدون ذاكرة، كما لو أنّ الحاضر قد سحقها. وهكذا، فإنّ المقاربة الأنثربولوجية، التي تشكل مَجْمَعا[13] عجيبا للمعارف حول الثقافات وحركتها، البعض في اتصال مع البعض الآخر قد تسمح بالتراجع والتعالي، لتضع في منظور جديد الموضوعات التي تسعى إلى دراستها. بطبيعة الحال، يجب توصيف هذه الموضوعات، وتحليل القوى الفاعلة، والتفكير والتأمل في التحولات التي تعلن عنها. ولكن أيضاً يجب أن نكون قادرين على تحديد موقع هذه الموضوعات في حركات اجتماعية طويلة تتجاوزها لبناء المعنى. ولا يزال بمقدورنا التفكير في التحوّلات، وفي كل ما ينفلت منا في السراء والضراء، وذلك بإقامة تعارض بين ما كان كائناً وما يحدث، دون أن نغرق في الحنين إلى الماضي.

13 بناء مصنوع بشكل يمكن اشتمال داخله بنظرة واحدة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019